19/12/2015

عبد العزيز الثعالبي

عبد العزيز الثعالبي (1874–1944) زعيم تونسي سياسي وديني. من القليلين الذين زاوجوا بين السياسي والديني، وبين المحلي والإقليمي والعالمي في عملهم؛ للتخلص من الاحتلال وظلمه والرفعة بالمجتمع والرقي به في الوقت ذاته.

كان في تونس قطبا ومناضلا بارزا ضد الاحتلال الفرنسي أولا وضد أعداء الدين الإسلامي ثانيا، فهو كما يوصف بأنه داعية الإصلاح والتجديد والمقاومة ما جعله عرضة للنفي والترحال في سبيل دعوته ومبادئه.

ولد عبد العزيز الثعالبي في مدينة تونس بالجمهورية التونسية. جده عبد الرحمن الثعالبي المجاهد الجزائري الذي هاجر إلى تونس رافضا العمل مع الفرنسيين الذين كانوا قد احتلوا الجزائر آنذاك. درس عبد العزيز في تونس. وبعد أن نال الشهادة الابتدائية التحق بجامع الزيتونة وتخرج حاملا شهادة التطويع وتابع بعد ذلك دراساته العليا في المدرسة الخلدونية انضم الثعالبي في مطلع شبابه إلى حزب تحرير تونس من الاحتلال الفرنسي وكتب في الصحف داعيا إلى الاستقلال والحرية.

كان الثعالبي يسافر كثيرا وزار العديد من البلدان العربية والأوروبية.

رجع الثعالبي إلى تونس عام 1937 حيث وجد الجو السياسي قد تبدل بعد أن وضع الحبيب بورقيبة يده على الحزب الدستوري الذي كان الثعالبي أول الداعين إلى تأسيسه وانحسار الموجة الشعبية التي كان يتمتع بها ثانيا. توفي الثعالبي في تونس منهيا حقبة بارزة من الصراع مع قوى الاحتلال وقوة التحرر والقوى المناهضة للتجد يي السياسي والديني.

إنه من جيل الرواد الذين ظهروا في أواخر القرن التاسع عشر، فهو جيل السياسة، والجهاد، والاقتصاد، والإصلاح الاجتماعي، والديني، جيل التضحية.

حفظ عبد العزيز القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره، ودرس النحو والعقائد والآداب قبل أن يلتحق بجامع الزيتونة الذي أمضى فيه سبع سنين، وتخرج فيه عام 1896حاملاً شهادة التطويع، ثم تابع دراسته العليا في المدرسة الخلدونية، ثم انخرط في الحياة العامة.

اندفع إلى المشاركة في العمل السياسي منذ يفاعته، وعندما تألف في تونس أول حزب يدعو إلى مقاومة الاستعمار الفرنسي، وتحرير تونس (عام 1895) انخرط الثعالبي في صفوفه، ثم أسس الحزب الوطني الإسلامي، وكتب في الصحف، وخطب وحاضر داعياً إلى الاستقلال والحرية، فضيقت السلطات الاستعمارية الخناق عليه، حتى اضطرته إلى الهرب من البلاد عام 1897 وبعد عودته من منفاه بعد أربع سنين، اعتقلته عام 1906 ودبرت مؤامرة خسيسة ضده، زعمت للناس أنه كافر.

ثم عرف الشعب الحقيقة، فثار ضد الاستعمار الكاذب الظالم، فأفرجوا عنه بعد حين، ثم أعادوا اعتقاله وطرده خارج البلاد عام 1912 فأضربت البلاد التونسية كلها ثلاثة أيام، احتجاجاً على اعتقاله ونفيه، ووقفت جميع الأعمال، فألح عليه المستعمرون أن يعود إلى بلاده، فأبى ما لم يعدل الوضع السياسي للبلاد.

وبعد انتهاء الحرب، استأنف الثعالبي نضاله، وسافر إلى باريس لشرح قضية بلاده، فقبضوا عليه سنة 1920 وكانوا ينقلونه بين السجون التونسية والفرنسية، ثم نفوه من البلاد في عام 1923.

وكان الثعالبي يؤمن بالعمل الجماعي، فانخرط في حركة تونس الفتاة التي تدعو إلى الاستقلال التام قبل كل شيء، ثم ترأس الحزب الحر الدستوري.

داعية الإصلاح والتربية

كان للثعالبي مجموعة من الآراء يرى أنه لا بد منها من أجل النهوض بالشعب، ومقاومة سائر ألوان الجمود والتخلف، حتى يكون جديراً بتحرير بلاده، قادراً على طرد الغزاة. كان يرى أن سبيل المقاومة لطرد الغزاة إنما يكون في تأسيس ثقافة عربية إسلامية، تصعيد الثقة بهذه الأمة التي هي من أعظم أمم الأرض، وأقدرها على مواجهة الأحداث.

ولهذا ركز على تكوين جيل من الشباب المسلم، قادر على العمل في سائر الميادين الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والتربوية، والدينية، ودعاهم إلى التحرر من سائر أشكال التخلف والجمود، وكان يطوف في المدن والأرياف، ليلقي دروساً وخطباً تشرح ما ينبغي أن يكون عليه الشعب من أجل النهوض.

وكان لا يعترف بالحدود المصطنعة التي أقامها الاستعمار لتمزيق العالم الإسلامي، فهي لمصلحة الاستعمار، وتمسك بها الزعماء من أجل مصالحهم، وهي ضد مصالح الشعوب المسلمة، فالأرض الإسلامية وطن لكل المسلمين.. وكان هذا عبر التاريخ الإسلامي، وفي سائر العهود الإسلامية، كان المسلم يتنقل من الدولة العباسية، إلى الأندلسية، إلى الفاطمية، فلا يحول دون تنقله حائل.

وكان يرى أننا أمة قوية عزيزة الجانب، ولها تأثير فعال في سير السياسة العالمية، وعلينا أن نعرف هذا، ونتحرك بحسبه. وكان يؤمن إيماناً عميقاً بالحرية، ويدعو إليها بقوة وإخلاص.

قضايا الأمة

لم يكن الشيخ عبد العزيز الثعالبي ليحصر همه فيما يعانيه وطنه المستعمر فحسب بل كان يحمل هموم الأمة على عاتقه، ويسعى إلى تقديم ما يستطيع من عون ومساعدة لها، وهذا ما نلمسه في حياته ورحلاته ومذكراته وكتاباته ومحاضراته. فقد وقف إلى جانب ليبيا في حربها مع الاستعمار الإيطالي عام 1911، ودعى إلى تقديم العون العسكري والمادي والمعنوي لها.

وحضر مؤتمر القدس، وصار المستشار الأول للمفتي الحاج أمين الحسيني، وألقى محاضرات سياسية، ودروساً دينية فيها، ودعا الفلسطينيين عامة، والشباب منهم خاصة، إلى الإعداد والاستعداد والجهاد من أجل التحرر من الاستعمار الإنكليزي، والتصدي للخطر اليهودي القادم، ومن أجل استعادة مجد الأمة وعزتها، وكان يصور لهم الواقع أصدق تصوير، ويعتمد فيما يقول على الأدلة العقلية الفلسفية مبسطة في سلاسة مدهشة يفهمها العامي.

وليس هذا الوصف بكبير على رجل مفكر عملاق يقف في صف واحد مع الأفغاني، ومحمد عبده، والكواكبي وسواهم من العمالقة الكبار.

الثعالبي كاتباً ومؤلفاً

كان الشيخ عبد العزيز خطيباً مفوّهاً، ومحاضراً مجيداً، وكاتباً صحفياً بارعاً، وعالماً ومؤلفاً قديراً، من أهم كتاباته:

- تونس الشهيدة. طبعت في باريس باللغة الفرنسية بعد الحرب العالمية الأولى، فاتهمه الفرنسيون بالتآمر على أمن الدولة الفرنسية، واعتقلوه ثم نقلوه إلى السجن في تونس، ومكث فيه تسعة أشهر ثم أخلوا سبيله عام 1920.

- الكلمة الحاسمة، وهو كتيب كان من آخر ما كتبه مبينا فيه أسباب الفشل لمحاولة التوحيد بين الحزبين عام 1937.